القضايا الفنية في شعر المهجر

مثلما حفل شعر المهجر بالعديد من المضامين الجديدة، فقد توافر على تجديد القصيدة من ناحيتها (الشكلية وخصوصاً ما يتصل فيها بالأوزان والقوافي واساليب التعبير وبناء الصورة الفنية وعنصر الموسيقى الشعرية. كما عنوا باللغة الشعرية واندفعوا في تجديدها اندفاعات قوية مما حقق لهم موقع الريادة في معظم هذه المسائل، وهو ما يتفق مع تطلعاتهم في بناء القصيدة العربية الحديثة بناء يستكمل اصوله المعروفة بثوب جديد يتناسب مع حياتهم الجديدة وطموحاتهم في ارتياد كل الطرق التي تحقق لشعرهم موقعاً رفيعاً وموقفاً رائداً.

وهكذا مضى شعراء المهجر في ارتياد كل الدروب والوسائل التي تحقق لهم ما أرادوه ، سواء في مسائل الشكل أو قضايا المضمون.

الصياغة الشعرية– في الأوزان والقوافي:

وقف شعراء المهجر موقفاً صعباً من أوزان الشعر القديم ومالوا عن البحور الطويلة إلى البحور القصيرة أو المجزوءة، مما هيأ لهم الطريق إلى ولوج فن الموشح، لما فيه من عذوبة موسيقية واستسلاماً لطريق التعبير، وما تتميز به من بساطة.

ولم يقف هؤلاء الشعراء عند حدود تقليد الموشحات الاندلسية، بل تعدوها إلى ما يحقق اندفاعهم في التجديد. لذلك فقد صاغوها على مختلف البحور، على خلاف ما عهدناه في الموشح الأندلسي الذي آثر بحوراً محددة.

وقد لاءموا بين بحورهم وموضوعاتهم التي تنسجم معها.

وكان نسيب عريضة من أشد المندفعين في اتخاذ بحور تختلف عن البحور المعروفة للموشح (فهو لا يسير فيها على طريقة الموشحات الاندلسية تماماً، بل يغير ويبدل، ويدخل ما شاء له النغم الموسيقي من زيادة في التفاعيل أو نقص منها. وهو يقسم القصيدة إلى مقطوعات تتميز كل مقطوعات منها بنغم خاص وتسير في بحر معين إلى أن تلتقي بتاليتها في توافق وانسجام)

ولم يكتف نيسب عريضة بهذا فقط، فقد مزج بين بعض البحور الشعرية القديمة وبين الموشح الاندلسي مزجاً ملائماً في توافق تام.

وربما كان لتأثر هذا الشاعر وغيره بالاساليب الغريبة اثر في تحقيق هذا التجديد في الموشح، وكذلك لاطلاعهم على الموشح الاندلسي، وهو ما حقق لهم التجديد في الصياغة والموسيقى الشعرية. وهذا ما اشار إليه أنيس المقدسي، حين رأى أن التوشيح الجديد متأثر من جهته بالطريقة الاندلسية ومن جهة أخرى بأساليب النغم عند الأوربيين.

على أن هذا الاقتحام الفني في مجال البحور، والذي نفذوه على فن الموشح، لا يعني عزوفهم عن البحور المعروفة التي نظم على أوزانها الشعراء العرب قدماء ومحدثين، فقد تمسك معظمهم بتلك البحور، وتصرف بعضهم الآخر بقسم منها، وسلك قسم ثالث طريق البحور الاجنبية فصاغ بها بعض قصائده.

وسبب عناية شعراء المهجر بالموشحات والنظم على غرارها فيما يبدو لنا، هو أن هذا الفن هو الوحيد الذي استسلم لموقفهم من البحور، وأن مقاييسه الفنية، التي كانت منذ القديم خروجاً على البحور المألوفة، هي التي انسجمت مع أهدافهم في تغيير تلك البحور من أجل التنويع في القافية، أو اللعب بعدد التفاعيل كما فعل ذلك شعراء المهجر.

ومن أكثر الشعراء ولوعاً في تغيير القافية وتنويع البحار ألياس فرحات ورشيد أيوب ونسيب عريضة وأمين الريحاني، فلنسيب عريضة موشحة بعنوان (النعامى) ولرشيد أيوب موشحة أسمها (ذكرى لبنان) وأخرى عنوانها (خلياني) ولإلياس فرحات موشحه (يا حمامة).

ومع شيوع ظاهرة التنويع هذه فإنها لم تكن شيئاً مبتكراً، إذ سبق إليها الشعر المهجري.

ويبدو لنا أن تحقيق هذا التغيير في شكل القصيدة وتنويع موسيقاها لدى شعراء المهجر، كان في نظرهم– على الأقل– ضرورة اقتضتها دعوتهم إلى التحرر من الأشكال التعبيرية في القصيدة. وفي هذا المجال دعى ميخائيل نعيمة إلى تحطيم القافية، لما وجد فيها من قيد يحد من قرائح الشعراء. وقد طبق دعوته هذه على أعظم قصائده وهي (النهر المتجمد).

وجاءت قصيدة إيليا أبي ماضي (لست أدري) على نظام المربعات.

وكتب ميخائيل نعيمة أيضاً قصيدته (لو تدرك الاشواك) على غرار الموشح، إذ استخدم شكلاً موسيقياً ينتهي بالأفعال.

ولجورج صيدح قصيدة تقترب من هذا اللون بعنوان (ساعة الغروب).

ولجبران قصيدة بعنوان (أغنية الليل)، ولرشيد ايوب قصيدة (بربي لبنان) ينحو فيها هذا النحو، ولنسيب عريضة قصيدة (على طريق إرم).

على أن هذه التغييرات التي استشهدنا باسماء قصائدها، لم تسر على وتيرة واحدة، أو تخضع لقاعدة ثابتة، كما حدث للموشح الأندلسي، بل خضع ذلك كله لمزاج الشاعر، ولون قصيدته ونوع تجربته.

كذلك فإن هذا التنويع الموسيقي لم يجر كله على غرار نظام الموشحات، بل خالفه في كثير من الأحيان مخالفة لا تخضع لقاعدة معينة، وهذا هو الذي حدا ببعض الباحثين إلى أن يقول بأننا (نجد أنفسنا أمام شكل صياغي جديد كل الجدة، لا تنتمي إلى طريقة الموشحات، ولا يخضع في صوره وأوزانه وقوافيه وتوزيع أشطره لنظام من النظم المعروفة)

وليس هذا فحسب، فقد استخدم شعراء المهجر نظام المربعات والمخمسات بعيداً عن طريقته المألوفة، بحيث صار لوناً جديداً تخضع له هذه التنويعات.

ومن الشعراء الذين حققوا هذه الطريقة في قصائدهم الياس فرحات في قصيدته (موطني) وشكر الله الجر في قصيدته (شلال تيجوكا) وميخائيل نعيمة في قصيدته (صدى الأجراس) ولنسيب عريضة في قصيدته (النعامى).

ولجبران وشفيف المعلوف وغيرهما، مربعات ومخمسات لا تخضع لا تساق معين ومما خضع لتحرر القافية، نظمهم على طريقة ما يسمى بـ (قصيدة النثر).

وقد نظم نعيمة في (همس الجفون) ورشيد أيوب في (الأيوبيات) شعراً منثوراً والواقع أن إقدام شعراء المهجر على التحرر من القوافي، والتغيير في الأوزان قد أوقعهم في الكثير من الأخطاء الموسيقية. ومن أشهر الشعراء الذين تعرضوا لهذه الهفوات، نعمة قازان في (معلقة الارز).

على أن هذا التحرر الذي سلك دربه كثير من الشعراء، لم يرق لآخرين من الذين تمسكوا بالأوزان المألوفة والقوافي الاعتيادية، اعتزازاً بما ورثوه عن أسلافهم، وربما يقف شعراء المهجر الجنوبي في مقدمة هذه الفئة من الشعراء.

اللغة والأسلوب:

اللغة هي أهم وسائل التعبير، واللفظة هي حجر الأساس في اللغة، لذلك فإن باحث الشعر المهجر يمكن أن يتجاهل ما حققوه من تجديد في مجال اللغة، وخصوصاً تلك المفردات والالفاظ التي طوعوها في قصائدهم وفقاً لمنهجهم في التحرر والتجديد ورغبة في الخروج على المألوف المعروف.

ويلاحظ قارئ الشعر المهجري أن أصحابه قد توخوا الكلمات الموحية والالفاظ السائغة السهلة، وهذا لا يعني أنهم هدفوا إلى استعمال الالفاظ العامية وتبنوا بها العبارات الهابطة، فعلى الرغم من وجود ألفاظ من هذا القبيل، إلا أنهم قد هدفوا إلى الألفاظ السهلة والعبارات البسيطة على غرار ما أقدم عليه العقاد بديوانه (عابر سبيل) الذي استخدم فيه كثيراً من هذه الالفاظ محاولة منه لتحقيق الانسجام بين موضوعات قصائده وبين بنائها، ومراعاة الجمهور الذي تصوره هذه القصائد.

ولقد كان في المقال الذي كتبه جبران بعنوان (لكم لغتكم ولي لغتي) أفضل شاهد على ما نقول، علماً إنه قد تعرض لكثير من النقد.

وقد دافع ميخائيل نعيمة عن جبران في هذه المسألة، ورأى ألا مانع من أن يشتق الشاعر كلمة من الكلمات ويستخدمها في شعره بوصفها تجديداً للغة.

ومن أمثال ذلك، استخدام إيليا أبي ماضي لكلمة (غرابيب) بدل (غربان) .

وقد سوغ بعض الشعراء لنفسه استخدام بعض الألفاظ الأجنبية، وفي مقدمتهم رشيد أيوب الذي استخدم العديد من الألفاظ مثل (ألأشعة) و(الراديو) و(الدولار) و(الكمنجة) و(القيثارة) وأمثالها.

وقد لاحظ أحد الدارسين أن شعراء المهجر حين أقدموا على مثل هذه الاستخدامات قصدوا الالفاظ المليئة بالقدرة على إثارة الإحساس، كما راعوا أن تكون قريبة من النفوس، جيبة إلى الأذن .

والواقع أن شعراء المهجر قد دعوا إلى إلغاء الفروق بين لغة الشعر ولغة النثر.

وتتضح هذه الظاهرة في قصائد جبران ونعيمة التي تتميز اللغة فيها بالرنين والحيوية، كما يتميز تركيبها بالبساطة والجمال. وقد حدا هذا بأحد الباحثين إلى القول بأن (العبارة في الأسلوب المهجري تبدو في بساطة منقطعة النظير في الشعر، فتراهم ينظمون بأسلوب اقرب ما يكون إلى النثر)

والواقع أن الدارسين قد اختلفوا في حكمهم على أسلوب شعراء المهجر، وما تبعه من اختراق لقواعد اللغة أو الاشتقاق أو استعمال ما لا يصح استعماله في اللغة الفصحى، فقد نعتهم البعض بالتمرد على اللغة والخروج على أصولها ، وخاصة ما اقدم عليه جبران ونعيمة، في حين وجدنا آخرين يؤيدونهم ويصفونهم اقتحامهم اللغوي هذا بأنه (آية البلاغة في العصر الذي نحياه، حيث يقول (فما احوجنا الى سلاسة ويسر وسهولة في الأسلوب والعبارة واللغة في أدب تكون فيه العناية بالفكر والمعنى والصور ليتأتى من التعادلية بينهما الروعة والايقاع).

والذي نراه أن بعض شعراء المهجر وأدباءهم لم يسلموا من الانحراف في بيئتهم الجديدة وثقافتها التي تثقفوا بها، وأن هذا قد أبعد كثيرين منهم عن الأصالة اللغوية والأسلوبية والتي استطاع شعراء المشرق العربي أن يحتفظوا بها مع سعيهم الحثيث نحو التجديد، ولنا في العقاد وجماعته شاهد واضح فيما استخدموه من عبارات موحية سلسة والفاظ سهلة بسيطة. استنبطت من أفواه المارة والباعة في (ديوان عابر سبيل) ولكن الشاعر ظل محتفظاً فيه بعنصر الفصاحة وسلامة العبارة مع تحقيقه لعنصر البساطة.

والدليل على أن تمادي بعض شعراء المهجر بالعنصر اللغوي والاسلوبي، أن كثيرين منهم ظلوا محافظين على لغتهم الفصيحة واساليبهم المتينة. ولم يتساهلوا فيها على الاطلاق، فآثروا الاسلوب العربي الرصين، وهذا هو الذي تميز به معظم شعراء المهجر الجنوبي (وكان اتجاه شعراء الجنوب الاخذ باتجاه القوة في الأسلوب والبراعة في النسج والتوشية الطيعية، واشراق الديباجة، ولأدبهم لما اعتقدوا الصواب الذي يجب أن يتبع حفاظاً على الأصالة المشرقية في الأسلوب) .

وممن يصدق في حقهم هذا الحكم، كثرة كاثرة من شعراء المهجر الجنوبي كالياس فرحات ويوسف صارمي وعقل الجر وابي الفضل الوليد والشاعر القروي ونعمة قازان، وفوزي المعلوف وزكي قنصل.

وإذا كان شعراء المهجر الشمالي قد اختلفوا مع شعراء المهجر الجنوبي في بعض ما يتصل باللغة والأسلوب، فهذا لا يعني أنهم صاروا نقيضين لهم فيه، فثمة شيء منهم طبع شعر المهجريين بطابعه المتميز، وهو الرقة الأسلوبية.

وربما كانت قصائد الحنين بخاصة، قد وحدت الجماعتين على هذه الرقة، التي تميزت بالعذوبة والرشاقة والحلاوة.

والواقع إن شعراء المهجر كلهم، قد امتلكوا القدرة على اختيار الألفاظ الفتي تتحقق فيها الرشاقة والرقة التي اكتسب أساليبهم نوعاً من اليسر والسهولة. وأن البساطة في التعبير والرقة الغنائية قد صارت عماد الشعر المهجري بعامة.

وربما تأتي لهم هذا من الحرية الفنية التي ألزموا انفسهم بها، ومن قدرتهم على التكيف للبيئة الجديدة التي صارت وصلاً بينهم وبين الثقافة الغربية.

ناهيك عن أن كثيرين منهم لم يحيطوا بالعربية وبأسرارها اللغوية والأسلوبية إحاطة واسعة لأنهم لم ينشأوا في ظل بيئتها المشرقية في سوريا ولبنان، فالمعروف أن بعض شعراء المهجر هؤلاء قد تركوا بلادهم منذ صغرهم، وأن بعضهم الآخر قد ولد أصلاً في البيئة الأمريكية الجديدة، لذلك لم تترك العربية وثقافتها واصالتها وعمقها آثار بصماتها عليهم، فكان هذا أحد الأسباب الرئيسة التي أضعفت أساليبهم، كما أضعفت حرصهم على اللغة وأصالتها. لكن بعضهم الآخر قد حقق في شعره هذه البساطة بما امتلك من ذوق مرهف حدا به إلى الابتعاد عن التكلف اللفظي.

وهكذا يمضي بعض شعراء المهجر في تحقيق اللفظة الشعرية المنتقاة والعبارة الدالة والتعبير الهامس الرقيق.

وتستطيع قصيدة زكي قنصل أن تعكس هذه الدلالات الفنية.

يقول في قصيدته (على ضريح سعاد):

رفت رفيف الاقحوانة وانطفت من عمرها

ماذا جنت حتى تصيدها الروى في فجرها

يا رب ألا تحبس فؤادي لحظة عن ذكرها أنا

قد عبدتك بسمة وضاءة في ثغرها

وشممت أنفاس الجنان شذية في شعرها

والأبيات كلها تجري على هذا النسق من البساطة والرشاقة والليونة والسهولة. لكن هذا لا يعني خلو شعرهم من طابع البداوة، نفد يلاحظ هذا الطابع القديم عند مجموعة من شعرائهم، كابي ماضي ونعمة الحاج والياس فرحات.

وربما تميز جبران من غيره بالعبارة الشفافة الغنية بالموسيقى والمملوءة بالصور الظليلة الموحية. وجبران لم يسلك هذا الأسلوب لضعف في ثقافته اللغوية كما حصل لبعضهم، فقد كان وصاحبه ميخائيل نعيمة من أثقف شعراء المهجر على الإطلاق.

هذا وقد نعت محمد مندور اسلوب المهجريين بصيغة (الشعر المهموس) وذلك لشفافيته ورقته وعذوبته.

ومما له صلة بأسلوب الشعر المهجري، استخدام الرمز الذي صار وسيلة للتعبير عن مكونات نفوسهم الحالمة، وغاية بهدف مجان الاداء في التعبير.

ويتضح الرمز في شعر جبران ظاهرة متميزة في مقطوعاته المشهورة (حفار القبور) ولابي ماضي في قصائد (التنية الحمقاء) و(الغدير الطموح) و(الابريق).

ولاحمد سليمان الاحمد الذي يعيش في الارجنتين قصائد رمزية جيدة.

وقد استخدم شعراء المهجر الحوار في شعرهم القصصي وغير القصصي، وبلغوا في تجديده مستوى جيداً لم نألفه في شعرنا العربي.

الوحدة العضوية

من أهم المسائل الفنية التي حققها شعراء المهجر في شعرهم. الوحدة العضوية فقد تحدث عنها ميخائيل نعيمة في (غربالة) ولكن الحق يقتضينا أن ننوه بسبق جماعة الديوان إليها، حيث وردت لدى العقاد وشكري والمازني، وبشكل دقيق يدل على فهم لطبيعتها ووظيفتها في القصيدة.

وقد صدر كتاب الديوان كما هو معروف عام ١٩٢١ في حين صدر (الغربال) عام ١٩٢٣، لكن هذا لا يمنع أن تكون فكرة الوحدة قد اختمرت لدى ميخائيل نعيمة وصحبه، إذ نفذوها في شعرهم قبل ان يطلقوها في تنظيرهم.

وقد أشار أحد الباحثين إلى أن شعراء المهجر، قد حققوا في مجال الوحدة العضوية ما يسمي بـ (وحدة المجموعة الشعرية)، فأصبح ديوان الشعر يضم طائفة من القصائد ذات طابع معين يكاد يكون مشتركاً بينها، وأصبح له اسم يمت بصلة إلى هذا الطابع، ونلمس ذلك في ديوان (أوراق الخريف) لندرة حداد، (الارواح الحائرة) لنسيب عريضة ، و(أغاني الدرويش) لرشيد ايوب ، و(همس الجفون) لميخائيل نعيمة، و(الاعاصير) للشاعر القروي ، و(احلام الراعي) لالياس فرحات.

الصورة الشعرية:

أما التعبير بالصورة فقد حققه شعراء المهجر وجودوا فيه، لكن جبران ونعيمة والريحاني، يحتلون في ذلك مركز الصدارة.

وقد اعتمد شعراء المهجر (التعبير بالصورة عن وعي وبصيرة، وإنهم ينتقلون من الصورة الجزئية إلى الصورة الكلية، التي تصور مشهداً كلياً، أو توضح شيئاً مترابطاً فيما يمكن أن نسميه لوحة، وينتقلون من اللوحة إلى وحدة القصيدة برمتها حين تعتبر القصيدة صورة موحدة، وتعتمد اللوحة بدورها على مجموعة من الصور الجزئية التي تتآزر على رسم معالمها. كما تتآزر الخطوط والالوان على رسم لوحة)

ويتجلى هذان النوعان في قول ميخائيل نعيمة مخاطباً نفسه:

أني رأيت الفجر يمشي خلة بين النجوم

ويوشي جبة الليل المولى بالرسوم

يسمع الفجر ابتهالاً صاعداً منك اليه

بخشوع جاثية

هل من الفجر انبثقت؟

ومن الشعراء الذين أجادوا رسم الصور. الشاعر القروي إذ له لوحات متماسكة في قصيدة (القيصر وتولستوي) وقصيدة (سقوط اورشليم واريتا).

ومنهم أيضاً ألياس فرحات وشفيف المعلوف وإيليا ابو ماضي الذي نستطيع أن نجد له مجموعة من الصور المتميزة بدواوينه. ومنها قصائد (السجينة) و(الطليقة) و(فلسفة الحياة) و(الطلاسم) و(الطين) و(ابن الليل) و(المساء) و(الحكاية الازلية) و(الفقر).

وإذا كان الشعر العربي قديمه وحديثه قد حقق قدراً كبيراً من التصوير الفني، فإن هذا التصوير قد أصبح من احدى مزايا الشعر المهجري الخاصة التي برع فيها، وخصوصاً التصوير الذي يعتمد الايحاء الذي تتشكل منه الوحدة العضوية التي لا تقوم إلا به ولا تعتمد إلا عليه.

المصادر:

١- حركة التجديد الشعري في المهجر

٢- شعراء الرابطة القلمية